

حركة المقاومة الإسلامية

حماس

دراسات في

الفكر والتجربة

تحرير

د. محسن محمد صالح

المشاركون

أ. د. أحمد سعيد نوفل	أ. أسامة حمدان	أ. إسماعيل هنية
د. إشتياق حسين	أ. بلال الشوبكي	د. حافظ الكرمي
أ. خالد مشعل	د. رائد نعيرات	أ. سامي خاطر
أ. سميح حمودة	أ. د. طلال عتريسي	د. عدنان أبو عامر
د. محسن محمد صالح	أ. د. مصطفى أبو صوي	د. موسى أبو مرزوق
أ. يوسف أبو السعود	أ. د. يوسف رزقة	



الفصل الثالث

رؤية حماس للآخر

موقفها من اليهودية، واليهود والصهيونية والصهاينة
و"إسرائيل"

أ.د. مصطفى أبو صوي

رؤية حماس للأخر*

موقفها من اليهودية، واليهود، والصهيونية والصهاينة و"إسرائيل"

مقدمة¹:

هل ثمة علاقة بين الصراع وبين إيجاد الصور النمطية حول جهة ما أو انتشارها؟ هل كل مرة يتم فيها انتقاد كيان ديني أو عرقي أو قومي أو ذكره بطريقة سلبية يُعدُّ أمراً سلبياً؟ هل ثمة نقد موضوعي لتلك الحالات؟ أمر واحد يبدو منتشرًا عالمياً: يعاني كل مجتمع من الروايات القاسية والمسيئة التي تغذي الصراعات وتؤججها.

أما فيما يتعلق باختيار مصطلح "الرهاب اليهودي" أو التخويف من اليهود (اليهودوفوبيا Judeophobia) بدلاً من مصطلح "معاداة السامية" في هذا البحث، فالسبب راجع في الجزء الأكبر منه إلى أن العرب أنفسهم ساميون، على الرغم من أنه خارج وحدة الجنس البشري تقريباً، يبدو كل شيء على أنه مركب "اجتماعي"، بما في ذلك الفئات العرقية الأنثروبولوجية الاستعمارية. والقول بأن "عمق اللون لا يتعدى الجلد" ما يزال يحمل دلالات سلبية، بسبب الافتراض بأن لون البشرة لا يؤخذ بالاعتبار غالباً، وأن المرء لا يمكن أن يتعرف على المساواة بين البشر إلا خارج حدود الجلد أو اللون. القرآن الكريم يذهب أبعد من ذلك إلى القول أن تلك الألوان آيات إيجابية من الله تؤكد وجوده: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْخَلْقُ الْأَسْنَنِيَّ وَالْوَزْنُ أَلْفَ رِيبًا﴾².

وهكذا فإن القرآن الكريم يدعو الناس إلى تقدير هذه الاختلافات، حيث ما من إنسان أرقى شأنًا أو أرفع منزلة بسبب الخصائص الوراثية التي يحملها. ومن وجهة نظر

* قام مركز الزيتونة بترجمة هذا النص إلى اللغة العربية عن أصله باللغة الإنجليزية، والذي كان بعنوان: Hamas' Conceptualization of the Other: Its Stance Towards Judaism, Jews, Zionism, Zionists and Israel.

¹ بالرغم من أن هذه المقدمة تبدو طويلة نوعاً ما، ولا تدخل بشكل مباشر في صلب البحث، إلا أن كاتب هذه السطور يرى أنها مهمة جداً لفهم النقاط موضع البحث.

² القرآن الكريم، سورة الروم، آية 22.

إسلامية، فإن كل الألوان متساوية، والفرق يكمن فقط في الإيمان وفي التزام الأخلاق. فكيف يمكن لأحد ما أن يضطهد شخصاً ما أو يميز ضده بسبب مظهره الخارجي، بما في ذلك المظهر المفترض والمركب (كما في حالة الصور النمطية)، ناهيك عن ارتكاب الجرائم البشعة من مجازر وإبادة جماعية؟

يتعين على المرء أن يكون موضوعياً في تقييم هذا الموضوع الحساس، فلا مجال لتبني معايير مزدوجة لدى معالجة الظاهرة ذاتها. وسيتناول هذا البحث رواية حماس المتعلقة باليهودية، واليهود، والصهيونية، والصهاينة، و"إسرائيل". وسيحاول الكاتب أن يفكك، أو يرد، على أبرز الكلام الذي يعكس "رهاباً يهودياً" متى كان ذلك ممكناً، مع اعتماد هذه الردود بشكل رئيسي على مصادر ومبادئ إسلامية، وفهم عميق للسياق الفلسطيني الذي يتشكل فيه هذا الكلام.

ونبدأ بطرح مثالين اثنين، أحدهما متعلق بـ"الرهاب الإسلامي" أو التخويف من الإسلام (الإسلاموفوبيا Islamophobia) والآخر بـ"الرهاب اليهودي"، لنبين ببساطة أن الروايتين متشابهتين، من حيث محاولات تجريد الآخر من الصفات الإنسانية، والسعي إلى الانتقاص من شأنه.

المثال الأول هو الحاخام عوفاديا يوسف Ovadia Yosef، زعيم حزب شاس Shas الذي يعدُّ أكبر الأحزاب السياسية المتشددة في "إسرائيل"، وقد صرَّح في آب/أغسطس 2000 أن رئيس الحكومة في حينها إيهود باراك Ehud Barak يفتقد إلى المنطق، لأنه يحاول التوصل إلى سلام مع الفلسطينيين، الذين وصفهم بالأفاعي. وقد جاء تصريحه هذا في سياق خطبته الأسبوعية في موعظة السبت المسائية التي تُبث على محطات الحزب الإذاعية، وكذلك عبر الأقمار الصناعية في الخارج. يوسف، الذي أمر حزب شاس أن يترك التحالف مع رئيس الحكومة باراك، عندما كان باراك مغادراً إلى قمة كامب ديفيد للمفاوضات مع الفلسطينيين، وصف العرب بالأفاعي المهتمين بشكل أساسي بقتل اليهود. وتساءل يوسف: أي نوع من السلام هذا؟ وأضاف: هل ستضعهم إلى جانبنا؟ أنت تحضر الأفاعي إلينا... هل ستصنع السلام مع أفعى³؟

Site of ABC News, 6/8/2000, <http://abcnews.go.com/US/story?id=96252>³



أما المثال الآخر فخطيب يلقي خطبة الجمعة في الجامع الكبير في خان يونس بقطاع غزة الذي تسيطر عليه حركة حماس، وقد بُثَّت الخطبة على تلفزيون الأقصى في 2012/2/24، وهو وسيلة إعلامية يفترض ارتباطها بحماس بطريقة أو بأخرى، وجاء فيها أن اليهود "مجموعة من أحفاد القردة والخنازير".

أما فيما يتعلق بالحاخام عوفاديا يوسف، فإن نظرتة اللاهوتية إلى استغلال غير اليهود (وهي فئة تشمل الفلسطينيين) أن هؤلاء خُلقوا لخدمة اليهود، وأن الجويم (أو الأغيار) لا مكان لهم في العالم إلا لخدمة شعب "إسرائيل"⁴.

أما موقف الخطيب المسلم المعادي لليهود فيشكل تعبيراً مركباً يخالف رسالة القرآن الكريم، كما وردت في الآية الكريمة التالية على سبيل المثال: ﴿وَلَقَدْ عَلَّمْتُمُ الَّذِينَ أَعْتَدُوا مِنْكُمْ فِي آلَسَّبِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾⁵. وكما يتبين هنا، فإن هذا العقاب الإلهي يأتي في سياق تكريس قدسية السبب اليهودي. ويقابل ذلك أن على المسلمين أن يمتنعوا عن أداء أي أعمال تجارية في أثناء صلاة الجمعة⁶، ومن الواضح أن من يخالف هذا الأمر الإلهي لم يستفد من قصة الاعتداء في السبب التي وردت في القرآن الكريم.

ويمكن هنا القول إن ما قاله هذا الخطيب هو رفض مباشر وصارخ لحالة أنعم الله تعالى بها على الإنسانية التي كرمها: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾⁷. كذلك يخاطب القرآن الكريم كل الجنس البشري بالقول: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَنْفُسُكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾⁸.

ويعبر سلوك خطيب الجمعة هذا عن أدبيات شعبية منتشرة بين العرب والمسلمين، تستهدف التحقير من شأن اليهود، كرد فعل على ما يقوم به الاحتلال الإسرائيلي من اعتداءات ومن اغتصاب لأرض الشعب الفلسطيني وحقوقه. لكنها لا تعبر بدقة عن الفهم الإسلامي الشرعي الذي يعامل اليهود كأهل كتاب لهم أحكامهم الخاصة بهم، بما

⁴ Haaretz newspaper, 20/10/2010.

⁵ القرآن الكريم، سورة البقرة، آية 65.

⁶ القرآن الكريم، سورة الجمعة، آية 9.

⁷ القرآن الكريم، سورة الإسراء، آية 70.

⁸ القرآن الكريم، سورة الحجرات، آية 13.

في ذلك حقوق المواطنة والحماية والحقوق المدنية الكاملة. كما أنه من المعروف لدى علماء المسلمين أن أولئك الذين مُسخوا قرده وخنازير، بسبب معاصيهم من بني إسرائيل، ماتوا ولم يكن لهم أبناء أو أحفاد.

وهكذا أصبحت "لتعارفوا" الشعار الذي رفعه الكثير من علماء المسلمين كتنقيض لكتاب "صراع الحضارات" الذي ألفه صموئيل هنتنغتون Samuel Huntington. وقد رأى هذا الأخير أن المستقبل سيكون حافلاً بالصراع المبني على الاختلافات الثقافية بدلاً من الموارد الاقتصادية والمادية، بما فيها الصراع على الأرض. فهذه الأخيرة هي غالباً محتلة ومصادرة على حساب السكان الأصليين، مثل الفلسطينيين الأصليين الذين منهم يهود، ونصارى، ومسلمين. وتُفهم "لتعارفوا" كمعيار، حيث إن الناس مدعوون إلى التعايش المشترك، وإلى العيش بسلام ووثام دون مقت أي طرف للآخر.

ويحدد القرآن الكريم وضعاَ خاصاً لأهل الكتاب عبر سلوك إيجابي يتجلى في الانفتاح الاجتماعي والاقتصادي، والأهم من ذلك في تأكيد الجذور اللاهوتية الأساسية المشتركة لكل الأديان، على الرغم من أن المركبات المعرفية الناشئة ما بعد الوحي، على يد "علماء" كل ديانة، أخذت اليهود والمسيحيين والمسلمين في اتجاهات مختلفة. إن التناقضات في النقل، مقرونة مع الذاتية لدى الإنسان، من شأنها أن تزيد البعد بين المجتمعات المختلفة وتنتج تجمعات جديدة.

إن الرواية الأصلية للمعاناة اليهودية في التاريخ الحديث هي أساساً أوروبية، وكتابات كارل ماركس Karl Marx حول المسألة اليهودية، تعكس روح العداء والكراهية التي انتشرت ضد اليهود في أوروبا. لقد عكست المذابح المنظمة في روسيا وإصدار بروتوكولات حكماء صهيون Protocols of the Elders of Zion "رهاباً يهودياً"، في وقت ولدت البروتوكولات أو دعمت نظريات مزورة حول مؤامرة يهودية معينة، بالتوازي مع رسائل ضمنية تشجب اليهود كمواطنين خائنين. أما حركة فولكيش Völkisch Movement التي ضمت مفكرين ألمان، والتي ترفض كل ما هو أجنبي، فرأت أن الروح اليهودية غريبة عن الانتماء إلى ألمانيا، وصاغت مفهوماً يعدُّ اليهودي "غير ألماني"، ونظرت إلى اليهود على أنهم غرباء.



والأمر نفسه للذين يعانون من "رهاب الإسلام" في الولايات المتحدة الأمريكية، والذين يصوِّرون المسلمين الأمريكيين على أنهم مواطنون خائنون، يتآمرون ليحكموا الولايات المتحدة (وكندا وأوروبا)، ومعهم عرب وفلسطينيون، يُعدُّون غرباء وهمجاً، لا يتوافقون بطبيعتهم مع الغرب المتحضّر. يذمّ من يعانون "رهاب الإسلام" كل ما هو متّصل بالإسلام، بما في ذلك الشريعة، وهم يفعلون بالمسلمين الشيء ذاته الذي فعله مؤلفو بروتوكولات حكماء صهيون، وأعضاء حركة فولكيش لليهود. كيف يمكن للإنسان أن يقول غير ذلك حيال كتاب روبرت سبنسر Robert Spencer "الحقيقة حول محمد: مؤسس الدين الأكثر تعصباً والجهاد المبطن: كيف يخرب الإسلام الراديكالي أميركا بلا أسلحة ومتفجرات". لقد أسست المدوّنة والناشطة السياسية الأمريكية بامبلا جيلر Pamela Geller، بالاشتراك مع روبرت سبنسر، منظمة "أوقفوا أسلمة أميركا"، ونظّمت حملة ضدّ إقامة المركز الثقافي الإسلامي "بارك 51" في نيويورك، بجانب موقع الصفر [حيث كان مركز التجارة العالمي]. وقالت جيلر، بعد المجزرة التي ارتكبتها الإرهابي النرويجي بهرنغ بريفيك Behring Breivik والتي ذهب ضحيتها 77 شخصاً، إن المخيم الذي قتل فيه الشباب كان يعلمّ معاداة "إسرائيل". وقد أثنى بهرنغ في بيانه على مدوّنة بامبلا جيلر، ما يؤكّد التأثير المباشر لمن يحملون "رهاب الإسلام" على عقول العديدين ونفوسهم. وقد اكتفت بريطانيا عبر مكتب وزير الداخلية بمنع جيلر وسبنسر من دخول المملكة المتحدة، لأن وجودهما "لا يسهم في المصلحة العامة"⁹.

لقد كان وصول النازيين إلى السلطة في ألمانيا مؤشراً على بدء المشاكل لدى اليهود، مع فقدانهم حقوق المواطنة وامتيازاتها. وتلا ذلك ما يعرف بليلة الكريستال Kristallnacht (وهي الليلة التي تمّ فيها تحطيم زجاج محلات اليهود) في 9-10/11/1938، ما أدى إلى تدمير المئات من الكُتُس، والآلاف من المنازل والمحال التجارية، وكذلك وفاة الآلاف من اليهود أو حبسهم. والأسوأ من ذلك أن اليهود (والبولنديين والعجز كذلك) تعرضوا لإبادة جماعية ممنهجة ومخطط لها، وكان من اللازم تأمين الحماية لهم من النازيين، لكن القوى التي كان من المفترض أن تفعل ذلك لم تتصرف فوراً.

⁹ The Washington Times newspaper, 27/6/2013.

إن أحد المواضيع المهمة والصعبة التي يمكن التعرض لها عند الحديث عن معاناة اليهود في التاريخ المعاصر، هو التحوّل إلى الكلام عن جذور المعاناة الحالية للفلسطينيين على يد الصهاينة ومؤيديهم. ولكن من هم أبرز مؤيديهم؟ في 2013/2/22، علّق الحاخام مايكل ليرنر Michael Lerner، محرر مجلة تيكون Tikun، على مقالة يوري أفنيري Uri Avnery تحت عنوان ”وهم مبادرة السلام الأميركية لإنهاء الصراع الفلسطيني - الإسرائيلي“، فقال:

اللوبي الإسرائيلي ليس هو إيباك [لجنة الشؤون العامة الأمريكية - الإسرائيلية (AIPAC)]، وليس العالم اليهودي بشكل رئيس، بل عشرات الملايين من المسيحيين الصهاينة الذين يعتقدون خطأً أن الطريقة المثلى كي يكونوا أصدقاء لليهود هي أن يعود المسيح، الذي سيفرض على اليهود كافة أن يعتنقوا المسيحية، أو أن يخلدوا في الجحيم. وتكمن المشكلة في الموافقة العمياء لهؤلاء على كل ما تقرره الحكومة الإسرائيلية، بما في ذلك تمسكها باستمرار الاحتلال. ويرجع الفضل (أو اللوم) إلى إيباك لإحكام قبضتها على السياسة الخارجية الأميركية، ولكن المسيحيين الصهاينة هم من يُسَخِّرون الكونجرس في خدمة إسرائيل. وحتى منظمة جي ستريت [J Street]، التي تُمثّل الصوت الحسن النية لبعض اليهود الليبراليين، تضطر أن تبرهن تأييدها لإسرائيل من خلال عدم التصفيق لمطالب إيباك والمسيحيين الصهاينة، وتضغط بدلاً من ذلك باتجاه ألا يكون دعم إسرائيل مشروطاً بإنهاء الاحتلال.

بدأً بالمؤتمر الصهيوني الأول في بازل بسويسرا سنة 1897، فإن المثلي موفد الصهيوني الغربي الذين وصلوا بالزعي الرسمي، والسترات، وربطات العنق البيضاء، مع عشرة موفدين غير يهود، بدأوا العمل على إنشاء دولة ذات قومية يهودية في فلسطين، وقد تبين النفوذ الصهيوني على بريطانيا من خلال وعد بلفور Balfour Declaration الشهير في 1917/11/2:

إن حكومة صاحب الجلالة تنظر بعين العطف إلى تأسيس وطن قومي للشعب اليهودي في فلسطين، وستبذل غاية جهدها لتسهيل تحقيق هذه الغاية، على أن يفهم جلياً أنه لن يؤتى بعمل من شأنه أن ينتقص من الحقوق المدنية والدينية التي تتمتع بها الطوائف غير اليهودية [التوكيد للكاتب] المقيمة الآن في فلسطين، ولا الحقوق أو الوضع السياسي الذي يتمتع به اليهود في البلدان الأخرى.



إن هذا التناكر للشعب الفلسطيني العربي الأصلي في بلاد كنعان وتقليصه إلى مجرد "طوائف غير يهودية" ما يزال يشكل صلب القضية. فلقد نُسيت أريحا القديمة، أول مدينة في العالم تعود إلى عشرة آلاف سنة خلت؛ وكذلك بيوس، مدينة العرب الكنعانيين منذ ما قبل نزول التوراة والإنجيل، والتي تُقدّم اليوم على أنها "مدينة داود". ولكن حتى لو لم يكن من فلسطينيين سوى غسان كنفاني الذي روى سنة 1969 في كتابه "عائد إلى حيفا" تعقيدات النكبة التي ما زالت تتفاعل منذ سنة 1948، لكان أهلاً لأن يكون شعباً وليس طائفة غير يهودية!

وقد وقع الفلسطينيون تحت الانتداب الاستعماري البريطاني الذي مهد السبيل لقيام "دولة إسرائيل". فقد تعرض الفلسطينيون للتطهير العرقي والتشريد والإبعاد، كما في مجزرة دير ياسين وسواها، ما أدى إلى هدم أكثر من 400 قرية فلسطينية وإزالتها عن بكرة أبيها، بالإضافة إلى تدمير المساجد والكنائس وتدنيسها، وطُرد نحو 800 ألف فلسطيني من أصل 1.4 مليون فلسطيني (57.1%) من أرضهم في حرب 1948. ويستمر مسلسل التطهير العرقي، لكن هذه المرة عبر القوانين التي تستهدف الفلسطينيين، وقد اعترفت "إسرائيل" بسحب الهوية من عشرات الآلاف من الفلسطينيين منذ حرب 1967. وما يزال أهالي شرقي القدس يعانون من سياسة سحب الهويات حتى الآن؛ ففي سنة 2008 وحدها سحبت هويات 4,577 عائلة مقدسية وطردوا من المدينة التي ولدوا فيها، وليس لهم إلا زيارة القدس كسائحين إن وافقت سلطات الاحتلال على منحهم تأشيرات دخول على المعابر الحدودية.

طائفة مسيحية في البيرو اعتنقت اليهودية و"عادت" إلى فلسطين كجزء من الهجرة اليهودية إلى أن انتهى بهم المطاف كمستوطنين في الضفة الغربية¹⁰! أمريكيون أصليون يحلون محل فلسطينيين أصليين! أيّ وقاحة هذه؟

لقد أدى المشروع الصهيوني إلى ظهور العديد من حركات وأحزاب المقاومة. وفي وقت يكفل القانون الدولي الحق في مقاومة الاحتلال، فليس كل تحرك ضدّ هذا الاحتلال مشروع، ولا كل سرٍ بشأنه مقبول، ويعالج هذا البحث هذا الأمر اللاحق دون أن يدّعي أنه يغطي بشكل كامل كل البيانات أو التصريحات المنسوبة إلى حماس أو قادتها.

How 90 Peruvians became the latest Jewish settlers, *The Guardian* newspaper, 7/8/2002.¹⁰

ميثاق حماس:

كتب أحمد يوسف، المستشار السابق لإسماعيل هنية الذي ما زال يرأس الحكومة التي تدير قطاع غزة، مقالة بعنوان ”ميثاق حماس... الواقع والرؤية والرواية“¹¹. وقد بدأ يوسف مقالته بالقول ”لم تتوقف دولة الاحتلال يوماً عن إدانة حركة حماس بالعنصرية ومعاداة السامية، واتهامها بالتطرف والإرهاب، وقد عملت على توظيف بعض النصوص التي وردت في الميثاق — خارج سياقاتها — للبرهنة على ذلك.“ وقال يوسف:

إن ميثاق حماس كان — في الحقيقة — رداً على واقع الاحتلال الإسرائيلي، وهو وإن كان وجهة نظر لأحد أهم شيوخ الحركة المخضرمين، إلا أنه قد تمت المصادقة عليه داخلياً في ظل ظروف الانتفاضة الاستثنائية عام 1988، باعتبار أنه وثيقة مطلوبة للتعبئة والحشد ضد الاحتلال الإسرائيلي، ولم يتم التدقيق — آنذاك — في بعض مفرداته الدينية والسياسية من وجهة نظر القانون الدولي والقانون الدولي الإنساني بشكل عام.

وأضاف يوسف ”لقد تدارس الإخوة في التسعينيات إمكانيات تعديل الميثاق واعتماده ك”منفيستو“ يلتزم الجميع بخطوطه العريضة، إلا أن الخشية من الاتهام بأن حركة حماس تحذو حذو حركة فتح في تقديم التنازلات، هي التي جعلت الحركة تتوقف طويلاً أمام اتخاذ مثل هذه الخطوة“. وقد كان البديل ”طرح أفكار جديدة عكست انفتاح الحركة بشكل أوسع تجاه المجتمع الدولي، وتقديم رؤى سياسية أكثر واقعية أبرزها قادة الحركة في خطاباتهم، وكذلك في البرنامج الانتخابي لكتلة (التغيير والإصلاح)“ في انتخابات المجلس التشريعي الفلسطيني سنة 2006.

وأضاف ”إن الحركة قد تجاوزت — إلى حدٍّ ما — الميثاق بمشاركتها في العملية السياسية، وقبولها بدولة فلسطينية على حدود عام 67، واستعدادها للتعاطي مع الرؤى والطلول السياسية المطروحة من قبل المجتمع الدولي“. فالميثاق، من وجهة نظر يوسف، وثيقة تاريخية، وليس دستوراً يتحتم على حماس الالتزام بحرفية نصوصه. ويتلخص جوهر مقالته في جملة ”إن شعبنا لم ينكر يوماً أن اليهود والمسيحيين هم أحد مكونات الشعب الفلسطيني وأرضه فهي تاريخياً أرض كل الأنبياء“. وقد أكد أنه، على الرغم من تكييف بعض الأبعاد الدينية، فإن ”صراعنا الحالي مع الاحتلال هو صراع

¹¹ صحيفة القدس، 2011/1/12.



سياسي“. هذه الجملة اللاحقة ينبغي مقارنتها بمقدمة ميثاق حماس، حيث ورد أن ”معركتنا مع اليهود جدّ كبيرة وخطيرة“.

تبنى ميثاق حماس مكتبها الإداري في فلسطين سنة 1988، ولكنه لم يُتبنَّ رسمياً في مجلس شورى الحركة، لا في فلسطين ولا في خارجها، مع العلم أن مجلس الشورى هو الجهة الوحيدة المخولة من ناحية قانونية لاعتماد المواثيق والتشريعات داخل حماس. وقد احترمت حركة حماس الميثاق وتعاملت معه كأمر واقع، وإن تجاوزته في الوقت ذاته. وبالإمكان القول، بدرجة عالية من اليقين، إن بعض بنود الميثاق ما عادت تلقى قبولاً خلال الأعوام العشرين الأخيرة، في حين أن الرواية التي خرجت على لسان بعض قادة حماس أصبحت أكثر تعقيداً، ففي مقالة نشرتها الجارديان The Guardian في 2006/1/31 قال خالد مشعل:

هذه رسالتنا إلى الإسرائيليين: نحن لا نحاربكم لأنكم من عقيدة أو حضارة محددة. لقد عاش اليهود في العالم الإسلامي ثلاثة عشر قرناً في سلام وتفاهم؛ ففي ديننا هم أهل الكتاب الذين لديهم عهد من الله ورسوله ﷺ بأن يحترمهم ويحميهم. صراعنا معكم ليس دينياً بل هو صراع سياسي. نحن ليس لدينا مشكلة مع اليهود الذين لم يهاجمونا؛ بل إن مشكلتنا مع هؤلاء الذين قدموا إلى أرضنا، ورفضوا أنفسهم علينا بالقوة، ودمروا مجتمعنا وأبعدوا شعبنا.

صحيح أن الإسرائيليين الصهاينة هم أساساً يهود، إلا أن التعميم بخصوص اليهود هو مغالطة. فمن اليهود من هم ضدّ الصهيونية، كحركة ناطوري كارتا Neturei Karta الحريدية، وكذلك حركة أغودات يسرائيل Agudat Yisrael، التي هي بالتشدد نفسه لكنها تمثل مجموعة أكبر، وهي ليست صهيونية ولكنها ليست ضدّ ”إسرائيل“. أيضاً، ثمة يهود علمانيون تجاوزوا الصهيونية في رؤيتهم إلى العالم، ويسعون إلى نزع الشرعية عن المشروع الصهيوني بوصفه مشروعاً احتلالياً. وبالتالي، فإن معاداة الصهيونية لا تقتصر على الفلسطينيين أو السوريين في الجولان المحتل، وغيرهم ممن يعانون من استمرار الاحتلال الإسرائيلي.

وتجدر الإشارة إلى أن التصريحات المتسامحة عن اليهودية والمسيحية ليست نادرة في أدبيات حماس، فالمادة 31 من ميثاق حماس نفسه تنص على ما يلي: ”حركة المقاومة الإسلامية... تلتزم بسماحة الإسلام في النظر إلى أتباع الديانات الأخرى، لا تعادي منهم إلا من ناصبها العدا، أو وقف في طريقها ليعيق تحركها أو يبديد جهودها. وفي ظلّ

الإسلام يمكن أن يتعايش أتباع الديانات الثلاث الإسلام والمسيحية واليهودية، في أمن وأمان". إلا أنه في ظلّ احتواء ميثاق حماس بعض البنود التي تتضمن "رهاباً يهودياً"، يقوم أنصار المشروع الصهيوني و"إسرائيل" بتحويل الانتباه عن الأدبيات الجيدة التي تحمل إحياء إنسانياً إيجابياً، وهو ما يستلزم النظر إلى الميثاق بكلّيته.

تربط المادة 32 على سبيل المثال، المشروع الصهيوني ببروتوكولات حكماء صهيون. هذه التزويرات الروسية المسماة بروتوكولات حكماء صهيون ينبغي ألا تكون جزءاً من أيّ رواية عربية أو إسلامية أو فلسطينية. والحقيقة أنها يجب ألا تكون جزءاً من أيّ سرد، إلا عند تناول الأدب الروسي الذي يعكس "رهاباً يهودياً". عبد الوهاب المسيري، المفكر المصري البارز، وأحد قادة الحركة المصرية للتغيير "كفاية"، يصل إلى خلاصة في كتابه "البروتوكولات، واليهودية والصهيونية" مفادها أن البروتوكولات كتابات مزيفة استندت إلى تحليل النصوص والسياقات، وأن أدب المؤامرة أدب اختزالي. ويشرح المسيري أن الزعم بأن اليهود يرثون صفات غير أخلاقية ثابتة، ويحافظون عليها جيلاً بعد جيل، إنما هو زعم لا يتناسب مع الإسلام، الذي يرى أن الفضيلة والرذيلة مسألة خيار لا وراثته. كما يقول إن الصهيونية متجذرة في معاداة السامية والاحتلال الغربي وأن "الرهاب اليهودي"، عندما يترجم اضطهاداً يساعد الصهيونية، وذلك عبر دفع اليهود إلى مغادرة بلادهم ليستوطنوا في فلسطين. كما يبين المسيري نقطة أخرى لدى تحليله البروتوكولات مفادها أن الزعم بأن القوى اليهودية تخطط للسيطرة على العالم، لا يلحظ الدعم الهائل والشامل الذي تقدمه الولايات المتحدة للصهيونية.

ويبدو أن البروتوكولات كانت جزءاً من النقاش بين حماس ووفد من الشخصيات الأمريكية في بيروت. وفي ما بدا بادرة حسن نية قال موسى أبو مرزوق، أحد قادة حركة حماس السياسيين، إن الحركة وافقت أن تزيل البروتوكولات من موقعها الإلكتروني¹². ولكن ليس كل قادة حماس مهتمين بتناول الروايات المتعلقة بـ"الرهاب اليهودي". ففي 2009/3/2، استضاف برنامج "أكثر من رأي" على شاشة الجزيرة القيادي في حماس سامي أبو زهري؛ الذي تهرب أربع مرات متتالية من سؤال حول البنود المتعلقة بـ"الرهاب اليهودي" في ميثاق حماس (استعملت المادة 22 كمثال)، وابتعد بتصريحاته قدر المستطاع عن السؤال الواضح.

¹² صحيفة البيان، أبو ظبي، 2005/4/20.

إلا أن مراجعة الميثاق، وإن كانت أمراً ضرورياً، قد لا تكون ممكنة قريباً. فقد قال القيادي في حماس محمود الزهار، وزير الخارجية السابق في الحكومة التي قادتها حماس، في مقابلة مع صحيفة الغد الأردنية، نشرت بعد يوم من فوز حماس بالانتخابات التشريعية في 2006، إن حماس لن تغير كلمة واحدة من ميثاقها.

ذكر الشيخ أحمد ياسين، القائد الروحي لحماس وأحد مؤسسيها (الذي اغتالته في 2004/3/22 مروحية تابعة للجيش الإسرائيلي، وهو خارج من صلاة الفجر على كرسية المتحرك) كلمة "إسرائيل" في مقابلة على الجزيرة في 1999/5/29؛ ووصف ناشطي حماس بأنهم "إخوة يدخلون إلى إسرائيل" خلال عملياتهم؛ ووصف نفسه بأنه "إنسان يقاوم ضد الاحتلال". ولكنه أيضاً قال إن عزّ الدين القسام، الذي يُعرف باسمه الجناح العسكري لحماس، قاتل اليهود والبريطانيين. وإن تحدث عن سجانيه، قال إن "اليهود لم يختاروا" من سيكونون معه في السجن من بين المعتقلين السياسيين الفلسطينيين، حيث كان بحاجة إلى مساعدة شخصية لكونه مشلولاً. إن استعمال هذا التعبير (أي اليهود) أمر شائع بين الفلسطينيين والعرب، ويُقصد به عادة التعريف بالجهة المعنية ولا يقصد به أي إهانة لدين أو لأناس معينين؛ كما أن استخدام كلمة "إسرائيل" لا تعني بالضرورة اعترافاً بها ككيان شرعي؛ حيث يُستخدم المصطلح بين الفلسطينيين والعرب من باب التعريف بالجهة المعنية، تسهياً على المستمع. غير أننا من المفيد أن ننبه أن على الفلسطينيين وسواهم أن ينتقوا توصيفات دقيقة ومرادفات لا تخلط بين اليهودية والصهيونية، والقادة الفلسطينيين حتماً يستطيعون التمييز بين اليهودية والصهيونية إن احتاجوا إلى ذلك.

في 2005، قال إسماعيل هنية إن صراع حماس محصور بالعدو الصهيوني، ولا يشمل اليهود بشكل عام¹³. وعندما كلف إسماعيل هنية تشكيل الحكومة الجديدة من قبل الرئيس محمود عباس عقب فوز حماس بالانتخابات التشريعية، أكد هنية في مقابلات عديدة مع وسائل إعلام محلية وغربية أن حماس لا تكنّ عداوة لليهود مجرد كونهم يهوداً، وأنها ليست لها مصلحة في استمرار حلقة العنف.

ما من شكّ في أن السياسات الواقعية أصبحت السمة المميزة لخطابات حماس وبرامجها السياسية خلال ولايتها في الحكومة الفلسطينية، وأن التصريحات الواردة

¹³ المركز الفلسطيني للإعلام، 2005/7/4.

على لسان العديد من قادة حماس، تطورت في اتجاهات ابتعدت نسبياً عن الميثاق. ففي المقالة المنشورة في الجارديان والمشار إليها سابقاً، عبر خالد مشعل عن موقفه فيما يتعلق بالعلاقة بين الهولوكوست وإقامة دولة لضحايا اليهود. ومشعل، الذي يقبل بإقامة دولة فلسطينية على حدود سنة 1967 تعهد في المقالة ذاتها أن حماس "لن تعترف مطلقاً بشرعية الدولة الصهيونية المقامة على التراب [الفلسطيني] للتكفير عن خطايا [التوكيد للكاتب] شخص آخر أو لحل مشكلة أحد آخر. ولكن إذا كان [الإسرائيليون] مستعدين لهدنة طويلة الأمد فنحن مستعدون لمناقشة الشروط. إن حماس تمد يدها بالسلام إلى أولئك المعنيين حقاً بسلام مبني على العدل".

وما يثير الاهتمام هنا هو حديث مشعل عن المحرقة على أنها "خطايا". ومن جهة أخرى، فقد بيّن محمود الزهار في كتابه "لا مستقبل بين الأمم"، الذي ردّ فيه على كتاب بنيامين نتنياهو Benjamin Netanyahu "مكان بين الأمم: إسرائيل والعالم" A Place Among the Nations: Israel and the World، أن جذور طرد اليهود من كل الدول الأوروبية على مرّ القرون الماضية تكمن في تدخلهم باغتيال قياصرتهم وحكامهم، وفي نشرهم الخلافات والكراهية بين شعوب العالم. كما قال بأن اليهود هم أول من كانوا معادين للسامية¹⁴.

ويشكل تفسير الزهار هذا فهماً غير دقيق لمعاداة السامية في أوروبا، والتي تمتد جذورها إلى المركّبات اللاهوتية المسيحية عن كون اليهود مسؤولين عن قتل المسيح، الأمر الذي ينفيه القرآن بشكل قاطع ليقدم رواية بديلة لما حصل، يمكن أن تساعد هنا في رآب الصدع في هذا المجال. إن رواية "قتل الإله المركّبة" هذه أدت إلى تطور أسطورة "فرية الدم" في إنجلترا خلال القرون الوسطى. هذه الأسطورة التي تعكس "رهاباً يهودياً" تتهم اليهود باستخدام دماء الأطفال من غير اليهود لأغراض دينية، حيث ما تزال شعيرة الفصح المتمثلة بـ"إحراق [دمية] يهوذا" قائمة في العديد من الاحتفالات المحلية في اليونان. وهي توصف أحياناً بأنها "إحراق اليهودي". بعض الناس ما زالوا مقتنعين بأن اليهود يشربون دماء المسيحيين في الفصح اليهودي في وقت استمر الموقف الكاثوليكي الرسمي متمسكاً بقتل اليهود للسيد المسيح حتى أصدر مجمع الفاتيكان الثاني وثيقة "نوسترا آيتات" Nostra Aetate أو علاقة الكنيسة بالأديان غير المسيحية

¹⁴ موقع فلسطين أون لاين، 2010/12/2، انظر: www.felesteen.ps



سنة 1965 التي ألغت المسؤولية الجماعية لليهود عن ما يُسمى "صلب المسيح". وعلى الرغم من ذلك، ما تزال معاداة السامية المرتكزة على أساس لاهوتي قائمة، وهذا هو صلب القضية.

قدّم المركز الفلسطيني للإعلام افتتاحية عن حركة حماس في 2006/9/15، اقتبست فيها آيات من القرآن الكريم تدافع عن حرية المعتقد، والعدل، والعلاقات الممتازة مع المسالمين من غير المسلمين:

تحترم حركة "حماس" حقوق أهل الديانات السماوية الأخرى، وتعتبر المسيحيين الموجودين على أرض فلسطين شركاء في الوطن تعرضوا لنفس الممارسات التي تعرض لها إخوانهم المسلمين من سلطات الاحتلال سواء بسواء، وشاركوا في مواجهة الاحتلال والتصدي لإجراءاته العنصرية، فهم جزء لا يتجزأ من الشعب الفلسطيني لهم كامل الحقوق وعليهم كامل الواجبات¹⁵.

وتتكمّل الفقرات اللاحقة في المقالة ذاتها عن "الدولة العبرية" مع الحرص على عدم ذكر كلمة "إسرائيل" كيلا تعطى الشرعية. والفكرة ذاتها تنطبق على استعمال "العدو الصهيوني"، و"الوجود الصهيوني"، و"العدو"، و"المشروع الصهيوني"، و"الاحتلال الصهيوني"، و"قتال الصهاينة حتى يخرجوا من فلسطين كما هجروا إليها".

في وقت يشير الاقتباس السابق إلى "الديانات السماوية الأخرى" (وردت بصيغة الجمع في النص الأصلي) فإنه يذكر المسيحيين الفلسطينيين دون أن يذكر اليهود. والسؤال هنا هل من الإسلام الدعوة إلى تطهير عرقي معاكس لليهود في مقابل ما حصل للعرب سنة 1948، بما أن السرد لا يترك مجالاً لحلول أخرى؟ أليست المقاومة هنا معنيّة في المقام الأول بإنهاء المشروع الصهيوني في فلسطين وإزالة هيكلية سلطة الاحتلال التي تقضل شعباً على آخر؟

وللتوضيح، فلنفترض للحظة واحدة أن المحتل ينتمي إلى خلفية دينية رابعة (غير اليهودية والمسيحية والإسلام)، ألم تكن الرواية الفلسطينية لتتضمن اليهود كجزء من النسيج الاجتماعي؟ ألم تكن مناسباتنا لتضمّ حاخاماً وراهباً وشيخاً، يتحدثون كلهم بلغة الوحدة ذاتها؟

¹⁵ نبذة عن حركة "حماس"، المركز الفلسطيني للإعلام، انظر:

<http://www.palestine-info.com/arabic/hamas/who/who.htm>

ويظهر أن النص المشار إليه لا يشغل نفسه باليهود في فلسطين ومستقبلهم، لأنه منشغل أساساً بالتعبئة ضد المشروع الصهيوني و"إسرائيل"؛ ولا يريد أن يدخل في جدلٍ حول من هو اليهودي الفلسطيني، ومن هو اليهودي المهاجر المستعمر المستوطن المغتصب للحقوق، وما إذا كان له الامتيازات نفسها إذا ما تحررت فلسطين، أو إذا ما انتهى المشروع الصهيوني فيها.

لقد نصّ الميثاق القومي الفلسطيني الأصلي سنة 1963 أن "اليهود الذين هم من أصل فلسطيني يعتبرون فلسطينيين...". وفي 1964 أبدل بالميثاق القومي الفلسطيني. وقد عدلت مادته السابعة سنة 1968 (نتيجة لحرب 1967) في الميثاق الوطني الفلسطيني لتحدد اليهود الفلسطينيين بأولئك الذين "يقيمون إقامة عادية في فلسطين حتى بدء الغزو الصهيوني". هذه المادة وسواها من المواد التي اعتُبرت غير متوافقة مع اتفاق أوسلو (لم يطلب من "إسرائيل" أن تلغي أيّاً من قوانينها العنصرية العديدة) ألغاه المجلس الوطني الفلسطيني في غزة سنة 1996، ثم في سنة 1998 بحضور الرئيس الأمريكي بيل كلينتون Bill Clinton.

"الرهاب اليهودي" أمر حقيقي، ولكن العمل من أجل القضاء عليه لا يعني بأي حال السكوت عن الانتقادات المحقّة لـ"إسرائيل". إن الدولة ليست كائناً أخلاقياً، وفي هذه الحالة ينبغي ألا تفسر على أنها هي "اليهودي المطلق". وما من شيء أقل من إنهاء الاحتلال الإسرائيلي يمكن أن ينهي العنف البنيوي الذي يتجلّى في كل أنواع السياسات والممارسات التي تولد التعاسة والكرهية.

إن ميثاق حماس ليست كتاباً منزلاً، بل هو وثيقة تاريخية تعكس (أو عكست!) تفكير أو طريقة تعبير شخص أو أشخاص في حماس. وإنها لمسألة أخلاقية أن تتأى حماس بنفسها عن التصريحات التي تعكس "رهاباً يهودياً" أو ما يعرف باللا سامية، وتثقف قواعدها حول هذه القضايا الحساسة. وهذا لا يعني أن عليها أن تقبل الظلم اللاحق بالفلسطينيين، ولكنها خطوة في الاتجاه الصحيح؛ ليس من باب إرضاء أحد، ولكن من باب التوافق مع طبيعة وأصول الفهم الإسلامي نفسه، الذي تستند إليه حماس.



Islamic Resistance Movement

Hamas

Studies of
Thought &
Experience

هذا الكتاب

تُمثّل حركة المقاومة الإسلامية حماس أحد أبرز حركات المقاومة الفلسطينية. وهي حركة تحظى بشعبية واسعة في الوسط الفلسطيني، وتتبنى الإسلام عقيدة وسلوكاً ومنهجاً، وتنتمي إلى مدرسة الإخوان المسلمين.

شارك في إعداد هذا الكتاب 17 من الأساتذة والباحثين المتخصصين وقيادات من حركة حماس، وهو يستعرض النشأة التاريخية لحركة حماس وتطورها، والرؤية السياسية لها، ونظرتها للعدو الصهيوني، وموقفها من مشاريع التسوية السلمية، ومن القضايا الفلسطينية، ورؤيتها لعملية الإصلاح السياسي والاجتماعي؛ كما يناقش دوائر علاقات حماس العربية والإسلامية والدولية، وغيرها من القضايا المهمة.

ويعدّ هذا الكتاب أحد أبرز المراجع المتخصصة في فكر حركة حماس وتجربتها، ولا غنى عنه لكل المعنيين بدراسة هذه الحركة؛ فهو يلتزم بمناهج البحث العلمي وكل ما يتطلبه ذلك من دقة وموضوعية وتوثيق؛ كما يضيف جديداً من خلال إسهامات من قيادات حماس نفسها.

د. محسن محمد صالح



مركز الزيتونة للدراسات والاستشارات
Al-Zaytouna Centre for Studies & Consultations

ص ب: 14-5034 بيروت - لبنان
تلفون: +961 1 803 644 | تليفاكس: +961 1 803 643
info@alzeytouna.net | www.alzeytouna.net



مركز الزيتونة للدراسات والاستشارات - بيروت

